

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ

مَا تَوَعَّدُونَ﴾ (الأنبياء: 109)

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الحال الذي
يستحقون عليه
التهديد والوعيد

بعد أن بان للناس الحق، وثبتت على المنكرين الحجة؛ فذكر لهم في الآيات السابقة التوحيد والرسول والرسالة، جاء في هذه الآية بيان حال المنكرين لها؛ فقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ فذكر حالهم التي يستحقون عليها التهديد والوعيد، لما اقترفوه من التولي والإنكار.

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿تَوَلَّوْا﴾: أَصْلُ (ولي): يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الْوَلِيِّ الْقُرْبُ، يُقَالُ: تَبَاعَدَ بَعْدَ وَلِيٍّ، أَي: قُرْبٍ، وَجَلَسَ مِمَّا يَلِينِي، أَي: يُقَارِبُنِي⁽¹⁾، والمراد بالتولي في الآية: الإعراض والإدبار؛ وهو مُسْتَعَارٌ هُنَا لِلْمُكَابَرَةِ وَالْعِنَادِ⁽²⁾.

(2) ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾: الْإِذْنُ: مَصْدَرُ أَذِنَ، يَأْذِنُ، وَأَصْلُهُ: رَفَعَ الْمَنْعَ، وَإِطْلَاقُ الْفِعْلِ، وَالْإِبَاحَةُ، يُقَالُ: أَذِنْتُ لَهُ فِي شَيْءٍ، أَي: أَطْلَقْتُ لَهُ فِعْلَهُ⁽³⁾، وَالْإِذْنُ: الْإِعْلَامُ، وَمِنْهُ الْأَذَانُ: وَهُوَ الْإِعْلَامُ بِدُخُولِ الْوَقْتِ، وَأَذِنْتُ بِالشَّيْءِ: عَلِمْتُ بِهِ⁽⁴⁾، وَهُوَ بَوَازِنُ أَفْعَلَ مِنْ أَذِنَ لَكَذَا بِمَعْنَى سَمِعَ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ اسْمِ الْأُذُنِ، وَهِيَ جَارِحَةُ السَّمْعِ، ثُمَّ اسْتِعْمَلَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ بِالسَّمْعِ ثُمَّ شَاعَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْعِلْمِ مُطْلَقًا، وَأَمَّا (أَذَنَ) فَهُوَ فِعْلٌ مُتَعَدٍّ بِالْهَمْزَةِ وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ الصَّيغَتَيْنِ فِي مَعْنَى الْإِنْذَارِ وَهُوَ الْإِعْلَامُ الْمَشُوبُّ بِتَحْذِيرٍ⁽⁵⁾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

(3) اللناوي، التوقيف على أمهات التعاريف، ص: 44، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).

(4) الفيومي، الصباح للنير: (أذن).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 172 / 17.

(3) ﴿سَوَاءٌ﴾: أصل (سوي) يدلُّ على استقامة واعتدالٍ بينَ شيئين، يُقالُ هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادلُهُ، وفُلَانٌ وفُلَانٌ على سويةٍ من هذا الأمر، أي: سواءٍ⁽¹⁾، فالسَّوَاءُ: العدلُ، قال الله تعالى: ﴿فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: 58]، أي على حكم العدل والإنصاف⁽²⁾، والمقصود بـ﴿سَوَاءٍ﴾ في الآية: اسمٌ معناه مُستَوٍ، والمعنى: (أنذرتُكم مُستويين في إعلامكم به لا يدَّعي أحدٌ منكم أنه لم يبلغه الإنذار)⁽³⁾.

✽ المعنى الإجمالي:

أرشد الحق سبحانه النَّبِيَّ ﷺ إلى ما يقوله للنَّاس في حال إعراضهم عن دعوته، فقال: فإن أعرضوا عن اتِّباع ما أوحى إليك فقل لهم: هاأنذا أعلمكم بأنِّي حربٌ لكم، كما أنكم حربٌ لي، فأنا بريءٌ منكم كما أنكم برآءٌ منِّي، وأنتم سواءٌ في هذا الإعلام، لا أخصُّ أحدًا منكم دون أحد، وإنما أخبرتكم جميعاً ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾: أي: حال كونكم جميعاً مستويين في العلم، وما أدري أقربُ زمنٍ وقوعٍ ما وعدكم الله به من العذاب، أم هو بعيدٌ⁽⁴⁾.

✽ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

التفريع في قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾:

في قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: الفاء عاطفة للدلالة على أنَّ ما قبلها موجبٌ لما بعدها⁽⁵⁾، والمعنى: (فإن أعرضوا بعد هذا التبيين المفصل والجامع فأبلغهم الإنذار بحلول ما توعدهم الله به)⁽⁶⁾.

أجل العذاب
ويوم القيامة
لا يدرية أحدٌ لا
نبيٍّ مُرسل ولا
ملكٌ مُقرَّب

صفة الوجداني
يصحُّ أن يكون
طريقها السَّمع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوى).

(2) السمين، عمدة الحفاظ: (سوى).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 173 / 17.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 442 / 16، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 350 / 11، والراغب، تفسير الراغب: 79 / 17.

(5) الألوسي، روح المعاني: 101 / 9.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 172 / 17.

دلالة التعبير بالتَّوَلَّى في قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ دون الإعراض:

التَّوَلَّى هو
الإدبار والإنكار
والإعراض لفَتْ
الوجه عن
الشيء

الإعراض يُستعمل في ترك المجادلة أو ترك الاهتمام، وأمَّا التَّوَلَّى فهو مستعارٌ لعدم الاستماع، ولهذا قال: ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ﴾؛ أي: أسمعْتُكُمْ، وهو مستعارٌ هُنا لعدم الامتثال، وحقيقةُ الإعراض: لفَتْ الوجه عن الشيء؛ لأنَّه مشتقٌّ من العارض وهو صفحة الخد؛ لأنَّ الكاره لشيءٍ يصرفُ عنه وجهه، وحقيقة التَّوَلَّى: الإدبار والانصراف⁽¹⁾، فالتَّوَلَّى هُنا أعظم دلالةً من الإعراض.

دلالة الأمر ﴿فَقُلْ﴾:

الأمر تهديدٌ
لمنكري الرِّسالة

المعنى: (قل ذلك بمسمع منهم)؛ إظهاراً لتحديهِ إيَّاهم بأنَّه فَوْضَ أمره إلى ربِّه ليحكم فيهم بالحق⁽²⁾ وفي إيراد المعنى بطريق تلقين القول جلالٌ للوحي، وتأكيدٌ على رسوليَّته ﷺ، والأمر هُنا على حقيقته.

سِرُّ التعبير بقوله ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾:

الإيذان إعدانٌ
مشوبٌ بالتحذير

الإيذان هو الإعلام، وفيه معنى الإنذار؛ وهو الإعلام المشوب بتحذير⁽³⁾، بخلاف الإعلام والإخبار فليس فيهما معنى النِّذارة والتحذير.

دلالة كاف الخطاب في ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾:

امتداد أثر
الخطاب إلى
قيام الساعة

قوله: ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾؛ الكاف مفعولٌ به دلٌّ على المخاطب الَّذي أَعْرَضَ عن الإيمان، بعد أن جاءته الآيات، فقد أعلمهم الرِّسول بحقيقة الدِّين، وأقام عليهم براهين التَّوْحِيد، فهو خطابٌ يمتدُّ إلى كُلِّ مُعارضٍ لهذا الدِّين إلى قيام الساعة.

دلالة حذف المفعول الثاني لـ ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾:

تقديرات
المحذوف في
الجملة

حذف مفعول ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾ الثاني لدلالة قوله: ﴿مَا تُوْعَدُونَ﴾ عليه، أو يُقَدَّر: آذنتكم ما يوحى إليّ، لدلالة ما تقدَّم عليه، والأظهرُ

(1) ابن عاشور، التَّحْرِير والتَّنْوِير: 28 / 117.

(2) ابن عاشور، التَّحْرِير والتَّنْوِير: 17 / 175.

(3) ابن عاشور، التَّحْرِير والتَّنْوِير: 17 / 172.

تقدير ما يشمل المعنيين، بتقدير (توعدون بما يوحى إلي)، فَحَذَفُ متعلق ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾ للدلالة عليه في قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾، ويشمل هذا القول كل ما يوعدونه من عقاب في الدنيا والآخرة إن عاشوا أو ماتوا؛ ولأنَّ السَّيَاقَ يُؤْذِنُ به لقوله قبله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء: 96] (1).

الكناية في قوله ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾:

قوله: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾؛ كناية عن شمول البلاغ والإعلام، بحيث لا يخفى على أحد، فالبلاغ الذي عناه النص أن الأمر أصبح لدى المخاطبين واضحًا تمام الوضوح، وهو تركيب يغلب عليه الاستعمال في مقام التحذير والوعيد (2)، وفيها كناية أخرى عن استواء الناس أمام الشريعة، فلا يفضل أحدٌ على أحدٍ في التبليغ، ولا يُترك أحدٌ دون جماعته لقلّة شأنه ومكانته، فيكون التبليغ للجميع على سواء.

الشريعة ميزان
المساواة بين
الناس تبليغًا
وحكمًا

دلالة تعدي الفعل ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾؛ ﴿عَلَىٰ﴾ فيه للاستعلاء المجازي، وهو قوة الملازمة وتمكّن الوصف من موصوفه (3)، ففيها من القوة والتمكين في التبليغ وإيصال الرسالة إلى كل على سواء.

القوة والتمكين
في التبليغ

دلالة الواو في قوله ﴿وَإِنْ أَدْرَى﴾:

حرف العطف في قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ﴾؛ عطف على جملة الإنشاء ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، وهو لشدة الاتصال بين الجملتين، فبعد أن أبلغهم بقدم الجزاء من الله على أعمالهم؛ بين لهم في الآية التالية أنه لا يعلم موعِدَ وقوع هذا العقاب.

حتمية وقوع
الجزاء دون
معرفة وقته

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 173 / 17.

(2) الطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 387 / 2.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 173 / 17.

دلالة الاستفهام في «أَقْرَبُ»:

في قوله تعالى: «وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ»؛ خرج الاستفهام إلى معنى التحذير، من أن ما يوعده أمراً متحقق الوقوع؛ عاجلاً أو آجلاً.

دلالة التعبير بـ (إن) دون (ما):

النفي مؤكّد

استعمال (إن) أكد في النفي من (ما) لاقترانها الكثير بـ (إلا) التي تفيد الحصر، وقد وردت (إن) النافية في القرآن الكريم في عشرة ومئة موضع، كلّها مقترنة بـ (إلا) أو (لما) عدا سبع آيات⁽¹⁾؛ منها الآيتان من سورة الأنبياء: «وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ»، وقوله: «وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ»، ويؤكد قوة (إن) في النفي الاستعمال القرآني لها في مواضع يستدعي السياق فيها زيادة توكيد في النفي.

ومما يدلّ على الفرق في استعمال (ما) أو (إن) قوله تعالى: «وَمَا أَدْرَى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» [الأحقاف: 9]، وقوله هنا: «وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ»، فجاء بنفي الدّراية الأولى بـ (ما) وجاء بنفي الدّراية الثانية بـ (إن) وذلك لأنّ الآية الثانية أبعد في عدم الدّراية وأقعد من الأولى، فقد أطلع الله رسوله فيما بعد على ما سيفعله به وبهم في الدّنيا والآخرة، فقد وعده بالفتح والنّصر والمغفرة، وكسر شوكة الكفر في الدّنيا، وأطلعه على ما سيفعل به وبهم في الآخرة⁽²⁾، في حين أنّ النفي بـ (ما) في الأولى هو للأحداث التي لم يُطلع الله تعالى عليها نبيّه صلوات الله وسلامه عليه.

ثم إنّه استعمل هنا (إن) في النفي تناسباً لفظياً مع استعمال (إن) الشرطيّة فيما سبق في قوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ».

(1) السامرائي، معاني النحو: 4 / 171.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3 / 118.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالدَّرَايَةِ دُونَ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ ﴿أَدْرَى﴾:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرَى﴾ عبّر بالدَّرَايَةِ دُونَ الْعِلْمِ، والفرق بين الدَّرَايَةِ وَالْعِلْمِ: أَنَّ الدَّرَايَةَ، بِمَعْنَى الْفَهْمِ، وَهُوَ لِنَفْسِ السَّهْوِ عَمَّا يَرِدُ عَلَى الْإِنْسَانِ فَيَدْرِيهِ؛ أَيِ يَفْهَمُهُ، وَقِيلَ: الدَّرَايَةُ مِثْلُ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الدَّرَايَةَ عِلْمٌ يَشْتَمِلُ عَلَى الْمَعْلُومِ مِنْ جَمِيعِ وَجْهِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ (الْفِعَالَةَ) لِلْإِشْتِمَالِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ أَكْثَرُ أَسْمَاءِ الصَّنَاعَاتِ عَلَى (فِعَالَةٍ)؛ فَالدَّرَايَةُ تَفِيدُ مَا لَا يَفِيدُهُ الْعِلْمُ⁽¹⁾.

الدَّرَايَةُ تَفُوقُ
الْعِلْمَ فِي
الِإِشْتِمَالِ

بِلَاغَةُ الطَّبَاقِ بَيْنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ:

الجمع بين القريب والبعيد في قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، طَبَاقٌ يُجَابِ إِيحَابٍ اقْتِضَاءُ مِطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَى الْحَالِ، دَلٌّ عَلَى شُمُولِ كُلِّ الْأَزْمَانِ؛ فَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ بِمَوْعِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَلَا يُعْلَمُ قُرْبُهُ مِنْ بُعْدِهِ، وَلَمْ يُخْبِرِ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ، أَوْ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ الْعِلْمَ خَاصًّا بِهِ سُبْحَانَهُ.

عِلْمُ الْقِيَامَةِ
خَاصٌّ بِاللَّهِ
تَعَالَى

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِ﴿مَّا﴾ فِي قَوْلِهِ ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾:

تَقَعُ ﴿مَّا﴾ عَلَى ذَوَاتٍ مَا لَا يَعْقِلُ وَيَفِيدُ الْعُمُومَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ هُنَا: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾، وَغَرَضُ التَّعْرِيفِ بِالْأَسْمِ الْمَوْصُولِ هُوَ التَّعْظِيمُ مِنْ شَأْنِ هَذَا الْوَعْدِ؛ كَوْنُهُ أَمْرًا قَدْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بَعْلَمَهُ.

السَّعَةِ فِي الزَّمَنِ
وَفِي الْوَعْدِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ الْكِنَايِيِّ بِ﴿تُوعَدُونَ﴾ فِي هَذَا السِّيَاقِ:

الْمَصْدَرُ الْمَوْضُوعُ ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ فَاعِلُ الصَّنْفَةِ الْمَشَبَّهَةِ قَرِيبٌ سَدًّا مَسَدَ الْخَبَرِ⁽²⁾، وَقَوْلُهُ: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ كِنَايَةٌ عَنْ حُلُولِ مَا تُوَعَّدُهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابٍ عَاجِلٍ، أَوْ هِيَ كِنَايَةٌ عَنِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْأَصُوبُ حُلُولُ الْعَذَابِ الْعَاجِلِ بِهِمْ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى بَعْدَهُ: ﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَكُمْ وَمَتَّعَ إِلَى حِينٍ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى تَأَخُّرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا⁽³⁾.

الْوَعْدُ بِالْعَذَابِ
فِي الدُّنْيَا أَوْ
الْآخِرَةِ

(1) الْعُسْكِرِيُّ، الْفُرُوقُ اللَّغَوِيَّةُ: 230 - 231.

(2) صَافِي، الْجَدُولُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ: 77 / 17.

(3) الطَّعْنِيُّ، التَّفْسِيرُ الْبَلَاغِيُّ لِلْإِسْتِفْهَامِ: 386 / 2.

دلالة حذف متعلق ﴿تُوعَدُونَ﴾:

وقوع غضب الله
على المعارضين
لدينه

حذف متعلق: ﴿تُوعَدُونَ﴾، وتقديره: (ما توعدون به)؛ لظهوره
فلا يحتاج إلى ذكر، وللدلالة على العموم؛ وهو الملائم لسياق الوعيد
والتهديد، فدخل فيه كل وعيد في الدنيا والآخرة.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحج الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446 هـ - 2024 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحج الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 34، 800 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-732-76-1

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 34: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحج الآية 50.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-76-1

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النजार»